أنماط المقالة الأدبية في مقالات الباب الواسع للدكتور علي جواد الطاهر(ت١٩٩٦م)

أ.م.د جاسم عبد الواحد راهي

أ.م.د مسلم مالك الأسدي

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد الرسول الأمي وآله الطاهرين وصحبه المُخْلَصين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

المقالة قطعة من النثر معتدلة الطول ، تعالج موضوعاً ما معالجة سريعة من وجهة نظر كاتبها، وهي بنت الصحافة نشأت بنشأتها وازدهرت بازدهارها. وإننا عندما نرجع إلى أقدم المقالات في تأريخ النوع الأدبي نجد أن كاتبها يعتمد فيها على التعبير عن خواطره وتأملاته أو موضوع دراسته أو رأي تأثر به تتجلى فيه شخصيته. وعندما نتقدم بتأريخ هذا الفن وصولا إلى الدكتور علي جواد الطاهر، نجده قد وضع لهذا الجنس الأدبي عناصر جديدة تعتمد الأسلوب الأدبي الذي يحمل القيم والأفكار والتجارب الحية ومن الواقع الذي يعيشه المجتمع.

لقد أحب الطاهر فن المقالة، واعتنى بها، ورفع من قيمتها، فخلف كثيرا منها، وكان من بين ما تركه مقالات (الباب الواسع) وهي مقالات متعددة ومتنوعة من شؤون المجتمع والثقافة. أتسمت بالأسلوب الشائق، والأفكار الهادفة، فكانت عنواناً ندرس فيه أنواعها ونتناولها بشيءٍ من الشرح والتحليل.

إن هذه المقالات جمعت ورتبت ترتيباً زمنياً في كتابٍ أعده (محمود كريم الموسوي) وأصدرته دار الشؤون الثقافية في عام ٢٠٠٧م. وفي هذه المقالات تظهر مقدرة الدكتور الطاهر اللغوية والإبداعية ليجذب من خلالها القارئ بأسلوبه الرصين وقدرته الفائقة على مزاوجة اللغة بالحدث ليمتلك قلب القارئ ويدخله في لعبته التي أطلق عليها(لعبة الفن المقالي) .

لهذا اقتضت خطة البحث أن تكون على ثلاثة مباحث، اختص الأول منها بتسليط الضوء على جوانب من حياة علي جواد الطاهر. بينما انصب المبحث الثاني على دراسة المقالة، وأصولها ومكانتها عند الدكتور الطاهر. وبعد ذلك جاء المبحث الثالث ليستعرض أنماط المقالات الأدبية عند الدكتور الطاهر في كتاب الباب الواسع، فكانت تتوزع في ثلاثة أنماط: الأول هو مقالة الشخصيات، والثاني هو مقالة السير الذاتية، بينما كان النمط الثالث مختصا بقضايا المجتمع. ثم بانت نتائج البحث في خاتمته التي تلتها قائمة المصادر والمراجع .

المبحث الأول: جوانب من حياة الدكتور علي جواد الطاهر.

الدكتور علي جواد الطاهر من أعلام الأدب العراقي في النصف الثاني من القرن العشرين، ولد في مدينة الحلة سنة١٩١٩م، فكان طفلاً موهوباً من نعومة أظفاره.

فالحديث عن الطاهر هو الحديث عن موهبة تملكت نفسه فصقلها بالقراءة وطلب العلم، وهكذا هو حال الأدباء الحقيقيون، تولد مواهبهم في مراحلٍ أولى من أعمارهم، وهكذا كان الطاهر. ظهرت موهبته في الكتاتيب، وصقلها معلمون في الدين والعربية، فاستطاع أن يختم القرآن في (الكتّاب)، وصار ميلهُ إلى القراءة طبيعياً.

وفي مدرسة الشرقية(١) ، تتفجر الموهبة بالقدرة على حفظ الأناشيد، التي كان أكثرها من المحفوظ الخارجي. وصَاحبَ هذا الحفظ قدرةً وجرأة على الإلقاء متميزة كانت تظهر في اجتماع صباح كل خميس.

وفي المتوسطة ظهرت موهبته في كتابة الشعر، وكانت هذه الكتابات بسيطة تعينه في بعض الأحيان على حفظ دروسهِ كقوله في النسر:

فكوكه صالحة للقظم أمعاءه صالحة للهظم(٢)

وقد تطورت مسالة القراءة عنده حتى شملت كتباً من مصر ولبنان، فكان مكانه المفضل في المدرسة مكتبتها، يختلي فيها لقراءة شعر الشعراء وقصص القصاص ومؤلفات الكتاب، حتى أسفرت تلك القراءة عن تفوقٍ عالٍ ظهر في مادة الإنشاء خاصة، فهو غالباً ما كانت تقل درجته في هذه المادة عن الدرجة الكاملة.

هذه المسألة دفعت علي جواد الطاهر إلى الكتابة، وكانت من كتاباته الأولى مشاركته في كتابٍ عن الزهاوي أصدرته مدرستهُ إذ كتب منه فصلاً يتعلق بالزهاوي والمرأة. ثم نمت عنده موهبة الكتابة، فكتب المقال في دراسته الثانوية، وكتب الكلمات أيضاً ومن هذه الكلمات ما كتبه في وفاة الملك فيصل.

استمر الطاهر في القراءة فتفاعل مع مجلتي(الرسالة) و (الرسالة الأدبية) المصريتين، وأنهى دراسته الثانوية وهو ابن حصيلة عالية من الثقافة والأدب، وهكذا شأنه وهو يَجوز عَتبة (دار المعلمين العالية) ، التي وجدها الطاهر دار مواهب، ووجد فيها حركة أدبية يختلط فيها الأساتذة مع الطلبة. وكان صوت الطاهر بارزا في هذه الدار حتى تخرَّج منها، فتثيره المشكلات ويكتب عنها، ويدخل دائرة الصحافة، فينشر في(البطحاء) (٣)، أول مقالاته الأدبية، وكانت متنوعة. ثم نشر في مجلة (الرابطة) في بغداد، ونشر في جريدة (الفرات) التي صدرت في الحلة.

ففي مجلة(البطحاء) نشر مقالة بعنوان قصيدة في بيت، والبيت هو قول أبي العتاهية المشهور:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس(٤)

ونشر في جريدة الفرات مقالاً بعنوان: (حولوا وجوهكم نحو الطبقة النامية)، ويستمر حاله مع المقالة التي أحبها وكتبها. وفي مصر يشارك في مسابقة أعلنتها جريدة (المصري) المصرية، وتفوز مقالته بالمرتبة الثانية، وتوثقت فيه الرغبة بأن يوسع كتاباته. حتى أنه كان يرسل بعض مقالاته من باريس إلى الصحف العراقية لتنشرها.

وبعد عودته إلى العراق عام ١٩٥٤م أخذ يكتب في مجلة (المعلم الجديد)، التي كان احد أعضائها، وكان له في هذه المجلة العديد من المقالات المتنوعة في أغراض الأدب والعلم والتربية. فكانت كتاباته إبداعاً في هذه المرحلة، وليس تعليماً، إذ اثري هذه المقالات بسماتٍ من الشعر الوجداني، وجمعت هذه المقالات في كتابه(مقالات في النقد الأدبي ... والتربية) (٥)، الذي أصدره عام١٩٦٢م.

ثم توالت الكتابات فكانت مقالاته التي جمعت في كتاب(وراء الأفق الأدبي) (٦)،صدر عام ١٩٧٧م، وبعد هذه المرحلة كانت له كتابات أخرى في كتابه (أساتذتي ومقالات أخرى) (٧)، الذي صدر عام١٩٨٧م. وفي تشرين الأول من عام ١٩٨٨م طلبت منه مجلة (ألف باء) الإسهام في تحريرها. فكان ذلك دافعا مباشراً لكتابة مقالات (الباب الضيق) (٨)، وصدرت بكتاب عام ١٩٩٠م وبنفس العنوان.

أما كتابه (الباب الواسع) (٩)، موضوع البحث ، فقد كان عبارة عن مقالاته الأخيرة قبل وفاته (رحمه الله). وقد وردت فكرة الباب الواسع عام ١٩٩٠م، وهو العام الذي صدر فيه كتابه الباب الضيق، الذي لقي ترحاباً في شكله ومضمونه، فوجد صاحبه صعوبة في الاستمرار على نهجه كونه كان محددا في مساحة المقال وفي الاختيار للموضوعات، فمال إلى السعة لاقتناص ما هو أبعد مدى في الزمان والمكان، وللتثبت بما كان من طريقته استمر

الطاهر في كتابة مقالاته حتى طرأ عليه المرض، فمضى يستغل ساعاتٍ من النشاط، يجمع فيها المتناثر من آثاره، ويعدها لتكون كتاباً، فكان هذا الكتاب، الذي طبع بعد وفاته بفترة طويلة، إذ صدر عام ٢٠٠٧م.

ابتدأ الدكتور الطاهر بكتابة مقالته الأسبوعية (الباب الواسع) كل يوم خميس في الصفحة الثقافية لجريدة (الثورة) الملغاة، من يوم الخميس الموافق السابع من ايلول من عام١٩٩٥م. ولحين وفاته في عام ١٩٩٦م، وكان مجموع المقالات (٤٤) مقالة، استمرت الصحيفة بنشر مقالاته بعد وفاته، والتي سبق وأن تسلمتها لغاية يوم الخميس الموافق الثاني من كانون الأول عام١٩٩٧م الذي صدرت فيه المقالة الأخيرة ، التي كانت بعنوان (عودة إلى التشاؤم) التي ختمها بأمنيته بأن يأتي كاتب يكمل ما بدأه فيقول: ((وهذا أوطأ ما وصلت إليه الحضارة التي يسميها قوم منتفعون بباطلها حضارة أو ما هي بالحضارة ، وإنما هي الخراب والدمار وعار البشرية. اللهم هل بلغت؟ أرجو، وأخشى، وأحِّس بالتقصير، وانتظار من يتولى الإكمال والكمال)(١٠).

المبحث الثاني: المقالة، أصولها ومكانتها عند الطاهر.

المقالة لغةً: من (قَوَلَ) وتدل على النطق، والمِقول : اللسان (١١)، والقول، الكلام على الترتيب وهو كل لفظ قال به اللسان تاما كان أو ناقصا. تقول: قال يقول، قولاً، والفاعل قائل ، والمفعول مقول، وقد عبر عن الآراء والاعتقادات بالقول ولم يعبروا عنها بالكلام أو الأصوات. وقول جمعها أقوال وأقاويل. وهي من قال يقول قولاً وقيلاً ومقالاً ومقالةً (١٢) ، وورد ت لفظة مقالة عند العرب الأوائل نجدها في قول النابغة:

إلّا مَقالةَ أقْوامٍ شَفَيْتَ بِها كَانَتْ مَقالَتَهُم قَرْعاً عَلى الكَبَدِ (١٣)

واستعمل العرب هذه اللفظة بمعنى بحث أو مسألة، أو مذهب ديني. وجاء هذا الاستعمال فيما ألفوا من كتبٍ ، فكانوا يقسمون الكتابَ على مقالات تعالج كل منها موضوعاً أو بحثاً(١٤)، وأشهر تلك الكتب كتاب(مقالات الإسلاميين) لأبي الحسن الأشعري(ت٣٣٠ه).

لقد عرفت أثار المقالة في الأدب العربي وقد درست هذه الآثار بوجوه مختلفة في دراسات مستقلة وغير مستقلة، مجملة ومفصلة(١٥).

ويقترب المدلول اللغوي للمقالة من المدلول الاصطلاحي من جهة الرغبة في التعبير عن أي فكرة يحاول الكاتب إيصالها للقارئ ، لأن الإنسان يستعمل لسانه أو قلمه في تقديم أفكاره ، وهذا ما يفهم من القول على اعتبار أن الكتابة قول مقروء(١٦)، وقد لا يبدو هذا المصطلح مقنعاً عندما نضعه للدلالة على الكتابات التي كتبها القدماء الذين برعوا في صوغ أفكارهم صياغة أدبية. كون المقالة توصف بأنها صورة أدبية نثرية، بل هي: ((من أهم صور النثر الأدبي وأمتعها ، وهي إنشاء نثري ، قصير كامل، يتناول موضوعا واحداً غالباً ، كتب بطريقةٍ لا تخضع لنظام معين بل تكتب حسب هوى الكاتب)) (١٧) ، هذا المفهوم لم يكن معروفا في ذلك الزمان، إنما ظهر في الأدب الغربي ورائده هو ميشيل مونتيني(١٥٣٣ ـــــ ١٥٩٢م). في فرنسا، وفرنسيس بيكون(١٥٦١ـــــ ١٦٢٦م) في انكلترا(١٨). وقد اشتهر بعدهما الكاتب صمويل جونسن(١٧٠٩ ـــــ ١٧٨٤م)، الذي عَرَّفَ المقالة بأنها ((نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام. وهي قطعة لا تجري على نسق معلوم ولم يتم هضمها في نفس كاتبها، وليس الإنشاء المنظم ـــــ في الفكرة ـــ من المقالة الأدبية في شيء)) (١٩).

وبذلك لا بد من الإشارة إلى التباين في آراء الدارسين الذين تناولوا دراسة المقالة، والبحث في جذورها. فقسمٌ منهم يذهب إلى ((أن بذور المقالة ظهرت في أدبنا العربي منذ القرن الثاني الهجري، وتمثلت على أحسن صورها في الرسائل الأخوانية والعلمية، ومنها (صفة الإمام العادل) للحسن البصري، فهي مثال جيد على المقالة الأخلاقية)) (٢٠).

ورأى آخرون أن المقالة الأدبية وإن وجد من آثارها في الأدب العربي القديم. إلا أن هذا الفن نقل إلى الأدب العربي من الغرب في العصر الحديث ، وقد ارتبط تأريخ المقالة في الأدب العربي الحديث بتأريخ الصحافة ومثلت الحقبة من (١٧٩٨م إلى منتصف القرن العشرين) طور النشوء لهذا الفن الذي مرَّ بمراحل التطور والارتقاء (٢١). وهذا الرأي اقرب إلى الصواب لأن كتابة المقالة يمثل((تعبيراً عن النفس وتنفيساً عنها فهي في النثر تشبه النوع الغنائي من الشعر، ولذلك كان كاتب المقالة واسع التفكير أكثر من أي كاتب آخر)) (٢٢). وهذا النوع من الكتابة ظهر مع ظهور الصحافة وكثرة مشكلات المجتمع، استعمله العرب بعد اتصالهم بالغرب ، ولم يكن الجانب الإبداعي شرطاً في المقالة العربية في أول استعمالها في أواخر القرن التاسع عشر. ولا يشترط في كاتبها أن يكون أديباً بل كانت المسألة تتعلق بتقديم الكلام ليؤدي فكرة أو مادة إلى القارئ(٢٣). ثم تطور الحال وازدهرت المقالة الحديثة في مصر ولبنان وأنتجت نماذج عالية من المقالة التي ترتقي لتكون فناً أدبياً متميزاً جديرا بالاهتمام(٢٤).

لقد وقف وراء هذا الازدهار عوامل عديدة أهمها التأثر الذي أخذت تمارسه المقالة المصرية واللبنانية بالآداب الأجنبية، وقد كانت تلك الكتابات تصل العراق وكانت قد قطعت شوطا لا بأس به للوصول إلى أعتاب فئة كبيرة ، فقد أصبحت معروفة بالعراق أسماء كثيرة مثل: احمد حسن الزيات وطه حسين محمود تيمور وعباس العقاد وعبد القادر المازني وتوفيق الحكيم و.... غيرهم. وقد أصبحت كتابات هؤلاء الكتاب أكثر توفرا وانتشارا بين المثقفين العراقيين، وبالتالي كان لها التأثير الأكبر في التوجه الجديد نحو المقالة الأدبية.

لقد التقت أقلام هؤلاء الكتاب في (مجلة الرسالة) وهي مجلة أسبوعية كانت تصدر في مصر، وتبلغ أقطار الوطن العربي جميعها، وكان لها قراءها ومنهم في العراق الأستاذ علي جواد الطاهر الذي أعجب بها. وأول ما أعجبه منها المقالة الأدبية.

مكانة المقالة الأدبية عند علي جواد الطاهر:

احتلت المقالة الأدبية مكانة بارزة في فكر الطاهر فكان اهتمامه بهذا اللون الأدبي تنظيراً وتطبيقاً، فمن الناحية التنظيرية نجد في كتابه (مقدمة في النقد الأدبي) فصلاً كاملاً عن المقالة بيّن فيه مفهومها وعوامل نشأتها وتطورها منذ أول استعمال لها عند ميشيل مونتيني وصولاً بها إلى الاستعمال العربي(٢٥).

لقد كانت نظرته إلى المقالة الأدبية نظرة متميزة مبنية على وجوب تحقيق الجانب التأثيري في القارئ فهو يرى أن المقالة تقوم على جذرٍ من الشاعرية الذي يتمثل بحرارة الانفعال واتزانه . بحيث لا يُخرِج المقالة إلى ميدان الخطب الحماسية، ويؤكد الطاهر أيضا، على صدق التجربة وحيوية اللغة، وتوثب الخيال وطرافته، وهذه رؤية جديدة في المقالة. لم تكن المقالة العراقية تعرفها.

إن المقالة العراقية وان كانت متأثرة بالمقالة العربية المصرية واللبنانية إلا أن كتابها نزعوا إلى أن تكون كتاباتهم متسمة بتماسك البناء ووضوح الأفكار وترابط الفقر، وكأنما كان من وكد أصحابها تقرير الحقائق والبرهان عليها، ولم يكن يعنيهم شيئاً من أمر الصياغة الأدبية والتأثير في القارئ(٢٦)،فكانت هذه المقالات تعليمية في طابعها العام لأن أصحابها لم يدركوا الجانب الفني الذي يمكن أن يتهيأ بالأسلوب المقالي، ظناً منهم أن المقالة لا تنشد غير الوضوح في عرض الأفكار والانسجام في البناء ودقة الهدف الذي كتبت من أجله، إلا أن هذا الفهم للمقالة قد تغيّر في النصف الثاني من القرن العشرين إذ إن القارئ العراقي أصبح لا ينشد تلك الأساليب المقالية، بل كان يبحث عن الاسلوب الفني الذي يتحقق عن طريق اختيار الألفاظ المعبرة وحسن الصياغة، فأصبح يبحث في المقالة التي تحقق له الإمتاع، ولم يتحقق له هذا الذوق لولا إطلاعه على المقالة العربية التي اتسمت بالأسلوب الفني الساخر، التي كتبها أدباء في مصر ولبنان وكان من أبرزهم احمد حسن الزيات وعبد القادر المازني وطه حسين وغيرهم من الذين تأثر بهم الدكتور الطاهر يقول((كنت أجد عند طه حسين والزيات، الإبداع الفني، والطراوة والشاعرية، والجدة على النثر العربي))(٢٧)، وقد مال الطاهر إلى الأسلوب نفسه، فيقول ((أنا من عشاق المقالة تأثراً ومتابعة لجيل (مجلة الرسالة) وأحاول أن أجد مجالاً لهذه الرغبة)) (٢٨)، وقد وجدها عند طه حسين الذي تأثر به، أيما تأثير إذ قال: ((ما زلت مع طه حسين ، وأكرر أني أميل إليه، منشأً وقلماً))(٢٩).

إن المقالة الأدبية استطاعت أن تكتسب شياً من شفافية القصيدة الغنائية وذاتيتها لتتحول إلى نوع إنشائي ذاتي له عناصره الفنية المتميزة ، وهذا العنصر الذاتي في المقالة على مستوى من الأهمية، إذ إن المقالة تكشف قبل كل شيء عن رؤية كاتبها للأمور والحياة ، لذا فهي تعنى بإبراز شخصية الكاتب حتى أن مشيل مونتيني جعل نفسه المحور الذي تدور عليه مقالاته(٣٠).

لقد أراد الأستاذ الطاهر أن تكون المقالة ذاتية، لا يقصد بها غير الإعراب عمّا يحسه كاتبها وعن ثقةٍ بصحة ما يقول (٣١)، وهذا النظرة لا تحصل لولا امتلاك الطاهر روحاً شعرية متأصلة في نفسه إذ كان يميل إلى الشعر وحفظه وقوله والنظر فيه والإعجاب بالجميل الرائع منه(٣٢) .

وظلت هذه الروح الشعرية مستقرة في أعماق نفسه يستمد منها ما ينهض بكتاباته الأدبية إلى مستوى فني جميل ويعزز هذه الروح حبه للمقالة الذي وصفه بقوله: ((أنا من محبي فن المقالة. وإن شئت المقالة الفنية وقد أرْتَفعْ بقدرها كثيراً وأراها من الأنواع الأدبية الجديرة بالعناية والتقدير شأن أي نوع أدبي آخر من قصيدة أو قصة)) (٣٣).

والمقالة الأدبية عند الطاهر لا تتطلب الدقة العلمية المطلقة وإلا استحالت بحثا علميا، وخرجت من الفن إلى التعليم، وفقدت طراوتها وغلب عليها الجفاف شأنها شأن الفنون المبدعة الأخرى، بل يشترط فيها أن يكون الكاتب صادقاً، وأن يعرب عمّا في نفسه، لأنه ليس باحثاً علمياً. وعلى هذا يمكن أن نقسم المقالة عند الطاهر على قسمين: المقالة التعليمية، والمقالة الفنية. فالمقالة الفنية؛ هي التي تعتمد على حالة شعورية معينة يعرب فيها الأديب عن نفسه من رأي وانفعال،أما المقالة التعليمية؛ هي التي تكتب لتعليم شيء، وتوصيل معرفة، وتتقيد بأصول المنهج ويكتفي منها بالوضوح عن الرأي أو تجربة أو مادة معرفية، وهذه ليست من الفن في شيء وإن جاءت شعراً منظوماً، لأن ليس كل منظومٍ يُعدُ شعراً ، وليس كل ما يكتب على أنه مقالة، يَعدُ مقالة فنية(٣٤).

فالمقالة هي ثمرة المعاناة مع النص عند الطاهر فهو يَعِد ((الأثر الأدبي الذي قرأه تجربة مثل أي تجربة أخرى مما تمَرُّ بالإنسان ومن ثم تتحول هذه التجربة إلى مقالة فتكون حينئذٍ أثراً أدبياً مبدعاً آخر، يمكن أن يقرأ لذاته))(٣٥).

فالطاهر يجعل المقالة فناً أدبياً يدور مع القرّاء أينما داروا، ويرافقهم حيثما ساروا، ويكون معهم في حلِّهم وترحالهم، وأحزانهم وأفراحهم في لهوهم وجدِّهم، يعبر عن نشاطهم العقلي، وعن اضطرابهم النفسي كذلك اختصرت الكتب في مقالات، فجاءت بلسماً شافياً لمرض العصر ودواءً لضيق الوقت ، فكانت المقالة من أوسع الفنون الأدبية انتشاراً؛ لأنها أقلها تعقيداً وأشدها وضوحاً، وأكثرها استيعاباً، لشتى الموضوعات وأيسرها مرونة على الكاتب، وأسهلها هضماً على القارئ .

لقد كتب الطاهر المقالة التي تترقرق فيها روح الشعر، فكانت مقالاته تتضمن الإبداع والفائدة وتتسم بطراوة الصياغة وبراعة الإدارة بما توفرات عليه من عناصر الأداء الفني، وهذه الميزة اكتملت في مقالاته جميعها فضلاً عن نزعة جديدة ظهرت في (مقالات الباب الواسع) تتمثل في وقوف الطاهر لمعالجة ظواهر اجتماعية، فكانت هناك مقالة صدرت عن إيحاء ما تثيره المشاهدة والسلوكيات الاجتماعية فراح يسجل هذه المسألة في مقالات متميزة، وإذا فرغ من هذه المشاهدات أخذ يجول بذاكرته ليسجل تلك الأيام التي مرت من حياته، وما كان فيها من حوادث ومواقف وذكريات. وهناك مقالات أيضاً كتبت في الباب الواسع، تتعلق ببعض الشخصيات التي اختارها الطاهر لتكون عنواناً لمقالاته.

المبحث الثالث: أنماط المقالة الأدبية عند الطاهر في كتابه الباب الواسع.

تنقسم المقالة على نحو عام على نوعين : الأول يسمى بـ(المقالة الذاتية) ، والثاني (المقالة الموضوعية) ، وقد وصفت مقالة النوع الأول ((بالذاتية حيث تنبع من رغبة الكاتب في التعبير عن تجاربه الشخصية وتأملاته في الكون والحياة والناس من خلال عمل إبداعي يستمد عناصره من مشاعره ومن وجهة نظره الخاصة ، ... أما المقالة الموضوعية فإنها لا تفسح المجال أمام انفعالات كاتبها واحساسيه ومشاعره الخاصة حيث تهتم أولا بتجلية موضوعها إذ إنها تنبع من رغبة الكاتب في عرض جانب من جوانب نشاطه العقلي التحصيلي تجاه موضوع ما من الموضوعات عرضاً موضوعيا ينحى قدر الإمكان – شخصية الكاتب وأهواءه الخاصة – ويقوم على المعايير المتعارف عليها)) (٣٦).

إن الفرق بين المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية هو أن المقالة الذاتية وعاء ممتلئ بأحاسيس ومشاعر الكاتب وانطباعاته تجاه موضوع ما. أي إن الكاتب يظهر نفسه بين سطور مقالته من خلال ذاتيته التي تطغى على مقالاته. في حين إن المقالة الموضوعية تكتب بأسلوب يختلف عن السابق، فمن العسير جداً أن نجد ذاتية الكاتب، وقلما يتدخل في الموضوع الذي يَكتب فيه، ويُبقِي نفسه بعيدا عن جوانب الموضوع، ليتسنى له عرض أفكاره الموضوعية بشكل منسق ومقلبا إياها – أي أفكاره – ضمن حدود الحقائق العلمية المتعارف عليها ، ((ولكنهما

أخيرا تنبعان من منبع واحد ، وهو رغبة الكاتب الملحة في التعبير عن شيء ما)) (٣٧)، أو موضوع ما ضمن ((ما يقع في بؤرة اهتمامنا الواعي في لحظة معينة وهو جزء بسيط جدا من المعلومات التي تنطلق من كل الأشياء والكائنات من حولنا)) (٣٨).

لم تظهر المقالة بنوعيها الذاتي والموضوعي في أدبنا على أنها فن مستقل شأنها شأن المقالة في فرنسا وانكلترا ، أي أنها لم تظهر في كتب مطبوعة تحمل في طياتها مجموعة مقالات، وإنما ظهرت في أحضان الصحافة ، التي كان لها الفضل الأكبر – كما اشرنا سابقا– في ظهور المقالة فناً أدبيا ، يسير مع بقية فنون الأدب الأخرى . ومن هنا مرت المقالة الأدبية بعدة مراحل تطورت فيها الأفكار والأساليب (٣٩)، وشملت مساحة من المواضيع غطت فيها القضايا والمشكلات الإنسانية

تشمل الدراسة الموضوعية للمقالة في كتاب (الباب الواسع) دراسة أنماط المقالة الأدبية فيه، ومن استقراء مقالات الكتاب يمكن أن نقسم موضوعاته على ثلاثة أنماط هي: مقالة الشخصية، ومقالة السيرة الذاتية، ومقالة القضية:

وقد ركزت الدراسة على المضامين الرئيسة في الكتاب، التي حاول الدكتور الطاهر إبرازها وإيصالها للمتلقي، مع شيء من الشرح والتفصيل لبعض المقالات، لنتعرف على كيفية بناءها الأسلوبي والفكري.

أولاً: مقالة الشخصية:

لون مقالي يكتب ليتناول أحدى الشخصيات المعروفة ويفترض أن تكون المقالة صورة حيَّة لإنسانٍ حيٍّ، تختلف عن الترجمة في النوع والدرجة الفنية(٤٠). وهذه المقالة تكتب عن شخصية بينها وبين الكاتب رابطة أو موقف يتعلق في أمرٍ معين، أو أن يكون للشخصية رؤية أو يتبنى اتجاهاً معيناً. يتناوله الكاتب بأسلوبه المتضمن حسن الصياغة التي تستهوي القارئ وتحثه على متابعة القراءة.

ويعكس كاتب المقالة الشخصية تأثيره وانطباعاته الخاصة عن تلك الشخصية التي يشير إليها في عنوان مقالته . محاولاً تخطيط معالمها الإنسانية تخطيطاً فنياً. ويبدو أن هذا النمط من المقالة كان يستهوي المرحوم الطاهر كثيراً ، وخاصة عندما يكتب عن شخصيةٍ أدبية عاصرها، أو كان لها الفضل عليه سواء أكان ذلك الشخص من أساتذته أم من غيرهم.

والطاهر إذ يعرض لهذه الشخصيات لم يكن غرضه منها التعريف والتصوير الخارجي فقط بل نجده ناقدا ينشد الإشادة بالمضامين والآثار والسلوكيات والصفات والمميزات التي خلفتها تلك الشخصيات. وله في هذا الباب مقالات كثيرة نجدها في كتابه ((أساتذتي ومقالات أخرى)) فضلاً عن كثير من تلك المقالات التي كتبها بدافع الانفعال.

وله في كتاب الباب الواسع أربع مقالات هي: (الشيخ علي) (٤١)، و(مع توفيق الحكيم) (٤٢)، و (منطق منيرة المهدية) (٤٣)، و (العقاد)(٤٤).

لا تخرج مقالة (الشيخ علي) في سياقها، عن المقالات التي كتبها الطاهر بدافع الانفعال المؤثر في نفسه الذي يصدر بدافع الإعجاب بتلك الشخصية التي يُستقى منها المُثل العليا. مصورا ذلك الإعجاب وذلك الموقف بأسلوبه الواضح الذي يحقق الإفهام، والقوي الذي يحقق التأثير، والجميل الذي يحقق الأدبية الخالصة.ومنها قوله:((ولا

يميل الشيخ علي إلى الإكثار من الكلام، ولا أكاد أتذكره متكلماً متحدثا، ويعرف الآباء ذلك عنه إلا من كانوا على شيء من حب الكلام، أو كانت المتقدمة بإبنها امرأة أرملة . فيؤكدون التوصيات. ويختمون التوصيات كما بدأوها: لك الدم واللحم ولنا الجلد والعظم.

ولكن الشيخ علي أقل من غيره ضرباً للصنّاع، مكتفياً بمفعول وقاره في نفوس صناعه، وتوارث التواصي بين هؤلاء الصناع بأن الشيخ علي إذا ضرب ضرب وإذا فلق فلق، وأنه لا يمكن أن تعبر عليه حيلة، وأن تجوز عليه كذبة، وليحذر ـــ خصوصاً ـــ أولئك الذين تحدثهم أنفسهم بالسباحة في النهر(الشط) والسباحة ممنوعة، وللشيخ علي شأن غيره طمغة من الحبر يضعها "الخلفة" على رِجل الصانع، فإذا محيت أو خف لونها كثيراً فمعنى ذلك ارتكاب خطأ السباحة)) (٤٥).

أما في مقالاته الأخرى فإن الطاهر لم يكن صادراً عن ذلك الانفعال. بل كان يصور موقفاً شخصياً انمازت به تلك الشخصيات بأسلوب مشوبٍ بالسخرية الناعمة والمفاجأة الرائعة التي تتضمن الفكاهة.

لقد بدأ الطاهر في هذه المقالات مستاءً تجاه تلك الشخصيات ولاسيما في مقالة(العقاد) و (منطق منيرة المهدية) وهذه صفةٌ لم تُلحظ عليه، إذ إنه نادرا ما كان يلجأ إلى هذا الأسلوب في كتاباته عن الشخصيات، ولعل السبب يتعلق بالتناقض الذي كان تتصف به تلك الشخصيات في القول والعمل، وهذه مسألة يمقتها الطاهر ولعلها حركت حفيظته، إذ إن هذا الأسلوب لا يفضله الطاهر ولا يتفق مع مبادئه في تناول الأمور.

في مقالة (العقاد) يقف الطاهر موقف المتعجب من هذه الشخصية التي استطاعت أن تنال مكانتها في نفوس عدد كبير من الناس، حتى عُدَّ عند بعضهم معجزة. أما الطاهر حاول قراءة ما كتب العقاد، إلا أن هذه المحاولة لم تنجح رغم تهيؤ الظروف المشجعة والمناسبة ليتأثر به كما تأثر أستاذه محمد مهدي البصير الذي يجله ويحترمه، فيقول: ((عباس محمود العقاد ، كاتب عربي حديث كبير، ما في ذلك شك. وإذا تركت الدلالة بما كتب وألف ونشر.. بقيت الدلالة بما له في نفوس قدر كبير من الناس، ألوف وملايين من إعجاب به واحترام له وإقبال عليه وهؤلاء منتشرون على مدى خريطة الوطن العربي من المحيط إلى الخليج مع وقفة خاصة مع السودان، أما المعجبون به في العراق فلا يحصون... ومنهم من يبالغ ـــ صادقاً ـــ فيرى فيه ضربا من المعجزة وهم ينطلقون في ذلك مرة مما قرأوا له من مقالة، ومرة مما رأوا لديه من جديد إذ يحدثهم في الفلسفة وعلم النفس وعلم النبات وكل شيء ومرة لما تابعوا إليه من كتب العبقريات "ذات الطابع الديني " وهكذا مكن لنفسه منزلة عند أهل الدنيا ومنزلة عند أهل الدين، ونترك الجانب السياسي لأهل السياسة وبخاصة السياسة المصرية في تقلباته من الوفد إلى" هتلر في الميزان" وتقلبات السياسة المصرية نفسها... إن كلمة كاتب كبير ليست كبيرة عليه، ودونك أثاره تدل، وأفكاره تشير، وإعماله تصرح، هذا إذا تركنا جبروته في نفسه وعمق اعتقاده...)) (٤٦)

وسرعان ما يقلب الطاهر صورة العقاد عندما يكشف سرَّ هذه الشخصية عندما يتم اللقاء، وينكشف الغطاء، ويظهر التكبر والتجبر في ذات العقاد التي كانت تحاول جذب النظار إليها، فيعيد الكاتب القول مع الواقع فيصفه قائلاً: ((وها هو ذا إزاءك، بعظمه ولحمه ضخم البناء جهوري الصوت. ولكنه لم يلق في نفسك هيبة أو تهيباً، ونستطيع أن نرد ذلك إلى أنك لم تزره معجباً محباً وإنما زرته لأنك زرته، ولو كان غيرك من المحبين العراقيين لخالجته الرهبة واضطربت قدماه، وتعثر لسانه وشعر وكأنه في حلم.

أجل ولكن هذا تصور فقط، لأن العقاد لا يوحي بالمهابة والجلال والقدسية.. وقد يرد ذلك إلى تعاظمه وبعده عن التواضع وعن الأحبة ونسيان العقاد. ثم ماذا؟ ثم انه يستقبل زواره وهو في "بالبجامة" جالسا في أقصى الركن الأيسر من الداخل إلى القاعة ولا تكاد تبتعد يده اليمنى عن محزم بجامته.. وعلى رأسه "طاقية" من قماش البجامة...)) (٤٧)

هكذا يروي الطاهر شأنه مع العقاد بأسلوبٍ فني تسيطر عليه الروح القصصية الممتزجة بالتشويق الذي يظهر بطريقة تغير اسلوب الخطاب.كل ذلك تجده عندما تقرأ المقال ومنه:

وفي مقالة(منطق منيرة المهدية) يصرح الطاهر بأن دواعي كتابة المقالة كان بسبب عودة إلى ذكرياته وأنه اطلع على طبعة من كتاب (تاريخ اللغة العربية) لجرجي زيدان، كان يتضمن صورتها، وقد فقدنا الصورة اليوم بسبب تغير الطبعة.

المقالة تتصدرها حكمة مفادها: ((خير للإنسان أن يتحدث بما عرف وان يروي ما أبصر.. وأول ما في الذهن من ذلك: صورة... لامرأة وردت كما في الذهن في كتاب لجرجي زيدا لعله كتابه القيم في بابه:"تاريخ اللغة العربية" وأرجع اليوم إلى الكتاب القيم فلا أجد الصورة ولعل مرد ذلك تغير الطبعة إذا لم يكن الاختلاف بالكتاب نفسه أو لم يكن الخلل في بنود الذاكرة نفسها... وردت الصورة في الكتاب القيم لامرأة وفي الكتاب ما ينص... على أنها أول امرأة عربية وربما قال مسلمة ، صعدت على خشبة المسرح...)) (٤٨) ، ويستمر الطاهر في رسم هذه الشخصية التي تقلبت حالها بين الغناء والتمثيل ولم يحسم أمرها لا في مهنتها ولا في مولدها ولا في مماتها فيقول: ((وتسأل متى توفيت منيرة المهدية ، بعد ما سألت متى ولدت؟ والجواب واحد. ولسؤالك في الحالين دافع يرتبط في الصميم مما أنت فيه، أن منيرة المهدية نفسها مغنية أو غير مغنية ليست من مهمتك، وان الذي يهمك في موضوعك منيرة المهدية التي انقطعت عن الغناء وغابت عن المسارح بعد أن "تابت" وحجت بيت الله الحرام، ... ومن يدري فلعلها انقطعت في الوقت المناسب... قبل أن يؤدي التدهور في الصوت وفي الوجه إلى خسارة لا تعوض. من يدري؟ وقد تكون هي أدرى مني ومنك!

لقد انقطعت عن الغناء وانسحبت إلى بيتها وحسناً فعلت، والحكيم الحكيم الذي يعرف متى يتكلم ومتى يسكت، متى يغني ومتى يحج)) (٤٩)

وقد أبصر الطاهر في منيرة المهدية منطق التناقض والمغالطة، وهذا المنطق هو الذي دعاها إلى العودة إلى الغناء، بعد ما أفل نجمها، وذهب صوتها، وهي ترى أن هذه العودة واجباً مقدساً عليها(٥٠). يقرأ القارئ المقالة فيشعر أن الطاهر لا يحب هذا التحول من منيرة المهدية وأنها لو بقيت في بيتها حاجة تقية نقية غفر لها حجها وأحتفظ بها التأريخ للطرب سلطانة ولكنها حين عودتها إلى الغناء، وارتكابها في لياليها الثلاث ما ارتكبت، واجرحت بشأن المنطق ما اجرحت خسرت الأولى والثانية والدنيا والآخرة(٥١).

ويختم الطاهر مقالته باقتباسٍ قرآني، وكلمات الحكمة.

لقد انطوت المقالة الشخصية عند الطاهر على مجموعة من التجارب والأفكار والأحاسيس والمشاعر، والتأملات، والتصورات، والمعارف والنظريات، والحقائق والمشاهدات، والآراء والخبرات، التي جاءت بأسلوبٍ واضح، لا لبس فيه ولا غموض ، فكانت المقالة بعيدة عن التناقض ، بين المقدمات والنتائج ، فيها من العمق ما

يجتذب القارئ ، و من التركيز ما لا يجعل من قراءتها هدراً للوقت، وفيها من الوفاء بالغرض المقصود، ما لا يجعل قارئها يُصاب بخيبة أمل، و من الطرافة والجدة، ما تبتعد به عن الهزيل من الرأي، والشائع من المعرفة والسوقي من الفكر، وفيها من الإمتاع ، ما يجعل مطالعتها ترويحاً للنفس، وليس عبئاً عليها.

ثانياً: مقالة السيرة الذاتية:

مقالة السيرة الذاتية هي تعبير فني صادق عن تجارب الكاتب الخاصة، وعن ذكرياته المتصلة بجوانب من حياته، وهي في أحسن حالاتها ضرب من الحديث الشخصي الأليف والثرثرة والمسامرة والاعتراف والبوح، ولكنها تمتاز إلى جانب ذلك بروعة المفاجأة وتوقد الذكاء وتألق الفكاهة(٥٢)

إن كاتب المقالة من هذا النمط، ما زاد على أنه يسجل تأملاته، أو تصوراته أو مشاهداته التي تغلب عليها النظرة الثاقبة في تحديد الموضوع. والأسلوب المميز، وإذا تفحصنا مقالات المرحوم الطاهر نجده قد وفق في خلق كثير من أنماط المقالة الفنية، كما نجح في توظيف العديد من التقنيات الفنية فيها.

إن نجاح الطاهر في خلق نمط جديد نجده في مقالاته التي استمدت موضوعاتها من سيرته الذاتية وتجاربه الحياتية واعتماده يكشف عن موهبة لازمت هذا الرجل منذ طفولته وفي بداية حياته، هذه الموهبة تمثلت بالذاكرة القوية، والملاحظة الدقيقة، والقدرة على التصوير للمواقف التاريخية؛ ويندرج تحت هذا النمط عدد من مقالاته منها: (أنا في أيام العثمانيين) و (الشرقية) (المتوسطة) و(الثانوية) و(الدورة العواشية) و(كان درسا اسمه المحادثة) وغيرها، وهي مقالات جاءت متسلسلة مع تاريخ حياته وكان آخر المقالات التي كتبها في الباب الواسع مقالة(أحب نورماندي).

لقد استطاع المرحوم الطاهر في هذا النمط من المقالة تصوير البيئة المكانية التي عاش فيها تصويرا دقيقا، وكأنها تتراءى أمام القارئ من ذلك وصفه للمكان الذي نشأ وتعلم فيه أول حياته في مدينة الحلة فقوله : ((يقع المسجد الذي يُعلم فيه السيخ علي الأولاد بالقرب من دكاني الوالد والأخ الأكبر فيما يعرف بالكطانة (القطانة) وكان المكان سوقاً لبيع القطن، أما الآن أي حين استصحب الوالد الولد فهو سوق للنجارين الذين يعدون المواد التي يطلبها الفلاحون، وهو مناخ للإبل (الأباعر) محملة بالحنطة والشعير، تنقل إلى العلاوي الكائنة في السوق أو إلى قريب منها)) (٥٣)

كما استطاع رسم صورة الشخصيات وحدد ملامحها الدقيقة في كثير من مقالاته، وهذا إن دّل على شيء إنما يدل على حدّة البصر ونفاذه وعمق الإحساس .

إن الطاهر في مقالة السيرة الذاتية يبتعد عن كل ما يمكن أن يفسد المقالة؛ فهو يبتعد عن الفلسفة والسفسطة، والتحليل والتعليل ، ويتجه إلى الأسلوب الفني الذي استمدته المقالة الأدبية من القصيدة الغنائية، يقول في مقالته(أنا في أيام العثمانيين): التي تحدث فيها عن ولادته ونسبه ونشأته بأسلوب فني بعد أن استهل المقالة بتساؤل يوحي بأنه على اتصال مع القارئ فيقول: ((أخبرتنا أنك ولدت في صيف ١٩١٩، ونريد الآن أن تحدثنا عنك في العهد العثماني، الذي كان قد انقضى قبل عام ١٩١٩، فكيف توفق بين ذلك؟)) (٥٤).

بهذا الاسلوب الذي يعتمد الروح القصصية، والسخرية الناعمة، وتغيير صوت الخطاب من المتكلم إلى المخاطب، يستهل الطاهر مقالته، لتحقيق إثارة القارئ وحثه على مواصلة القراءة، فضلا عن أن هذا الأسلوب كان وسيلة الطاهر للنفاذ لموضوعه الحقيقي.

والغريب أن السؤال كان عن مدة زمنية محددة قبل ولادة الطاهر. ويريده أن يجيب عليها؛ ولكي يوفق بالإجابة كان لابد له أن يعتمد الأخبار المشهورة جداً فيقول:((حتى إذا اطل الوليد الجديد على الدنيا كان اسمه قد سبقه، وكان الوالد قد اقر قراره عليه، انه اسم أبيه: علي حباً لوالده ... ولو لم يسمه علياً لسماه بما هو معروف بالمحلة... ولَما فكر أبداً في أسماء يسرح بها ولا يراها فهي إما أن تكون لعثمانيين في الدولة العثمانية، أو لمن هم على صلات بهم... ولم يمر بالحلة اسم من هذه الأسماء التي تنتهي بتاء طويلة): مدحت بهجت.... إلا ما كان من اسم وليد جار لنا جاء الدنيا قبلي بشهور أو سنه سمّاه أبوه "حكمت" ويمكن أن يرجع إلى التسمية إلى أن اقرب حكمت إلى الحلة هو "حكمت الجادرجي"))(٥٥). وبهذا الاسلوب يتخذ الطاهر من مسألة تسميته باباً للحديث عن العثمانيين وعن المدينة التي ولد فيها وعن بعض الشخصيات التي سميت بأسماء عثمانية مؤكدا أن علاقة البلدة بالعثمانيين اقتصرت على بعض الأسماء لأنهم مكروهين فيها اسماً وجسماً . وذكرهم مقترن بالظلم الذي شدَّ عراه القائد العثماني(عاكف) الذي فعل بالبلدة الأفاعيل، حتى صار اسمه تأريخاً ، ففلان ولد قبل دكة (وقعة) عاكف... (٥٦).

ومن مقالات السيرة الذاتية: ((كان درساً اسمه المحادثة) وفيه تختلط الفائدة التربوية مع الكشف عن جوانب من حياته، فقد كشفت المقالة عن فترة زمنية قضاها في المدرسة (الشرقية) الابتدائية يتذكر فيها أساتذته ومواد دراسته ولاسيما مادة المحادثة، فيقول: ((ها نحن أولاء في الصف الثاني، من مدرسة الشرقية الابتدائية، والمعلم عبد الحسين أفندي، ولوحة كبيرة مصورة ملونة ـــــ معدة مع لوحات أخرى مناسبة ـــــ يعلقها على السبورة. ويسأل بالفصيحة، بالفصيحة طبعاً وإلا ضاعت الفائدة ماذا ترى في أعلى السورة يا كمال؟)) (٥٧).

والطاهر إذ يسجل هذه الأحداث في هذه مقالاته فإن الغاية لم تكن إضاءة فترة من حياته وقد أضاءها؛ ولم تكن هذه المقالة لغرض الحكاية. إنما كان إضافة إلى تلك المسائل يدعو إلى إعادة النظر في عدة أمور منها النظر في المناهج التربوية، ولاسيما درس المحادثة لأهمية هذا الدرس ونفعه الكبير في العملية التربوية، فضلاً عن أن الطاهر سجل في هذه المقالة أسماء قديرة عملت في مجال التعليم في مدرسة الشرقية في أول إنشائها في الحلة، فيقول: ((ويأتي الصف الثالث، ومعلم المحادثة فيه (عطا أفندي) فتى أنيق أقرب إلى القصر أدخل في الدماثة، تعينه على النجاح الباهر قدرته على "الرسم"، لقد كان رسامًا بارعًا يمسك بالطباشير وما هي إلا لحظات وتستحيل السبورة لوحة حكاية كاملة .....)) (٥٨)، ويستمر في رسم صورة معلمه تصويرا دقيقا استطاع فيه أن يمزج التعبير الإنشائي مع الطبيعة ، وهي ميزة اختص بها الطاهر في هذا اللون من المقالة.

لقد كان الطاهر حريصاً على أن تحقق مقالته دورها في جعل المسؤولين عن التعليم والحريصين عليه أن يفكروا بالوسائل الناجحة لخدمة اللغة العربية وتيسر لهم السبل اللازمة تحقيق هذه الغاية.

ثالثاً: مقالة القضية(٥٩):

تظهر في هذا النوع من المقالات النزعة الإصلاحية، التي تمد الأديب بالأفكار والموضوعات الأخلاقية والدينية والتربوية والاجتماعية، فينشغل الكاتب في معالجة الأمور والقضايا الاجتماعية والإحداث السياسية، والمعاناة الاقتصادية أو الثقافية التي تعصف بالمجتمع، وفي هذا النمط من المقالة يجب على الكاتب أن يمتلك قدرة فكرية وملكة تحليلية تمدها ثقافة اجتماعية ودينية عميقة تنظر إلى الفساد نظرة نافذة ومصلحة فتجتث جذوره ومنابته (٦٠).

لقد كان الطاهر واحداً من أولئك الذين نزعوا هذه النزعة، إذ جاءت مقالاته تدعو إلى محاربة الجهل والتخلف والخرافات والأوهام وغيرها ((من قضايا الأدب والنقد، يلتقطها الدكتور الطاهر ويصوغ منها مقالة ويعالجها مفصحا عن فسادها متذرعا بروح السخرية)) (٦١) الناعمة التي كانت خفية نوعا ما والتي جاءت في معظم مقالاته. وحسبنا أن نسلط الضوء على مقالات الكاتب التي وجهت نحو نقد بعض المظاهر الاجتماعية ويتصل بعضها الآخر بشؤون الأدب والثقافة وغيرها من الموضوعات التي أخذت تخاطب الناس من قريب وتتحدث إليهم في شؤونهم الاجتماعية وجعلت تؤثر فيهم تأثيراً قوياً.

فالمقالات التي تتصل بالقضية الاجتماعية يكون الغرض منها غالبا نقد العادات الناخرة والتقاليد البالية التي تظهر في المجتمع على مدى العصور(٦٢)، وهذا ما وجدناه في مقالات الباب الواسع لعلي جواد الطاهر، التي جاءت بعنوان: (ماذا عن المشوار) (٦٣)،(عن البوتيك)(٦٤)، (الأمير والأميرة) (٦٥). (الحرام الذهبي) (٦٦) ، وهذه المقالات تشيع فيها روح السخرية والفكاهة والنقد اللاذع. والسبب الرئيس لظهور مثل هذه المقالات هو ما يطرأ على المجتمع من استعمالات ومستحدثات الحضارة. وشرطٌ في مقالة القضية أن يكون الكاتب ناقماً وان تكون النقمة خفيفة يشيع فيها لون من التفكه الجميل. ففي مقالة (الناطقون بالثاء) يظهر هذا الأسلوب واضحاً فتقرأ للطاهر هناك ((... ففي الآباء من يعجبه أن يسمي أبنه "ليث"، فإذا به يصير" ليس" ومنهم من يعجبه أن يسمي ابنه هيثم، فإذا بالهيثم يصير هيسم، ذهب ليس، وجاء هيسم، ومرت بسينه ، ووصل غيس. لا.. هذا غير معقول .. ويجب أن يضغط إخواننا على أنفسهم وألسنتهم ويعودوا إلى جادة الصواب، ليعود الليث ليثاً وتعود الحادثة حادثة ويفرق المرء بين أختين اسم الواحدة ثناء واسم الثانية سناء)) (٦٧)

إن عدة الكاتب في مقالة القضية هو ملاحظاته الدقيقة، وقدرته على إحكام الوصف، وإجادة التحليل، واتزان في الحكم، وعمق في التأمل، وبراعة في التهكم والسخرية الناعمة لكي تمتلك المقالة روح البقاء وتكتسب جماليتها وتأثيرها(٦٨).

إن المقالات التي كتبها الطاهر في هذا النمط كان فيها معتمدا على ملاحظاته الدقيقة، من ذلك ما لاحظه من خلل في كتابة الإعلانات التجارية، إذ إن دلالة تلك الإعلانات تتضمن أسماءً متكررة لا تتصل دلالاتها بما تتضمنه الأماكن المعلقة عليها، وقد بين الطاهر فيها أن هناك أسماءً من هذه الإعلانات وضعت على غير ما ينبغي أن توضع من دون وجود وجه من وجوه الدلالة.

ففي مقالة(وماذا عن المشوار) نجد أن صياغة العنوان هو عبارة عن سؤال. وهو متصل بأسئلة كثيرة توجه من قبل سائل افتراضي، قد يكون القارئ بتصور الطاهر.

الطاهر في افتتاح مقالته يبدي حيرة من هذه اللفظة فيقول: ((المشوار... لا ادري كيف يلفظ الميم، مضموماً أم مكسوراً أم بين بين)) (٦٩)، ويحاول أن يجد لهذه اللفظة معنى بالفرنسية؛ التي يتقنها ، فيجد لفظاً قريباً منها وهو: (mouchoir) ، وتعني المنديل وربما كان أصل المقصود بالمنديل الممخطة. لان الكلمة جاءت من الفعل (moucher) ، ثم ينتقل فيفتش عن استعمالاتها في الأقطار العربية، التي طاف فيها فلم يجد. ولكنه وجد لها استعمالا عامياً . فهي تعني الوقت القصير أو المسافة فيقول: ((وتعني المشوار في العامية القصر في المسافة أو الزمن، ونحن في العراق نقول: فلان مشوار ويجي(يأتي)؛ أي يعود قريباً، فهي دلالة على الزمن القصير)) (٧٠). وهذه الدلالة لا تتصل تمام الاتصال بما هو معروف من استعمالها كإعلانات عن مطاعم ومخازن وما إلى ذلك، مما تسايق أصحاب المحال التجارية على تسمية محالهم. وكأنها اللفظة المفضلة الجميلة في الوقع والدلالة، فهناك مطعم المشوار وصياغة المشوار ومرطبات المشوار وعطور المشوار.... (٧١)

ولا يترك الطاهر المسألة عند هذا الحد، فيتساءل عن معنى شافي للمشوار، وكان سبيله للحصول على ذلك المعنى هو رجوعه إلى المعاجم اللغوية، فيجد أن لهذه اللفظة تباينات في المعنى بين النافع والضار، والمعنى الحسن والسيئ ؛ فمن المعاني السيئة أن المشوار تعني: كثرة العثار حتى قيل: (إياك والخطب فإنها مشوارٌ كثير العثار). إلا أن الأسوأ من هذا المعنى اقتران اللفظة بالدابة، فيقال للمكان الذي تشور فيه الدواب وتعرض؛ مشوار، وتقول أخذت الدابة مشوارها... والمشوار ما أبقت الدابة من علفها. ويتساءل الطاهر في آخر المقال. أتجيز هذه المعاني استعمال المشوار لمطاعم الأغذية الجاهزة والمرطبات(٧٢).

الاسلوب في المقالة تسيطر عليه روح الفكاهة والسخرية الناعمة، وتميزت الألفاظ بالوضوح مع تضمين الألفاظ الأجنبية والعامية دون الإخلال بالقواعد النحوية'

ولا يقف الطاهر في نقده للمجتمع على المجتمع العراقي بل يلتفت إلى ظواهر في مجتمعات أخرى ، من ذلك مقالاته التي بعنوان: (الكتبي الذي يعمل نصف ساعة في الأسبوع) (٧٣) و(حمار اسم علم محترم في بيئته ومجتمعه) (٧٤) و (عجوز سادسة) (٧٥).

والطاهر في هذه المقالات يمتلك قدرة عالية في رصد المواقف والكتابة عنها معتمداً على اسلوبه اللطيف، والصياغة الفنية مع حرصه على أن تفيد مقالته من السخرية المتهكمة والنقد الدقيق. معتمدا في ذلك على ثقافته الواسعة ولاسيما المعجمية منها.

أما مقالات الشؤون الثقافية والأدبية فهي تلك المقالات التي كتبت وكان الهدف منها بيان مسائل أدبية أو تصحيح معلومة ثقافية، أو كشف الأخطاء اللغوية، والأخطاء التي ترد في مصادر مختلفة. فضلاً عن تلك المقالات التي تتعلق باستعمال المصطلحات غير الصحيحة بسبب عدم دقة الترجمة.

والطاهر ((إذ يختار القضية من الأدب والنقد ولا يزال بهما حتى يلينهما ويزيل جفافهما وثقلهما فأذابها من مأنوس الحديث الذي يشوق القارئ)) (٧٦)، ومن نماذج هذه المقالات في الباب الواسع مقالة (بغداد وين والحجاج وين)(٧٧) ، و(الطلاسم قصيدة وليس ديواناً) (٧٨)، و(يا للسرديات من كلمة تسيء) (٧٩)، و(الأدب العربي الحديث) (٨٠) وغيرها من المقالات.

ففي مقالة(بغداد وين والحجاج وين)، يرصد الطاهر خطأً في جواب سؤالٍ يتعلق بترجمة سيرة الحجاج بن يونس الثقفي، إذ كُتبت المقالة رداً على الخطأ الذي سمعه الطاهر في الإذاعة. وبيت القصيد في هذه المقالة أن المختص في برنامج (بين السائل والمجيب) قد قال في جواب عن سؤال سائل يسأل عن حياة الحجاج، ما نصه: ((أن عبد الملك بن مروان ولى الحجاج على العراق، فدخل المسجد ببغداد وألقى خطبته الشهيرة التي استهلها بقوله:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا)) (٨١) ، متى أضع العمامة تعرفوني

إن الخطأ قد أثار الطاهر فراح يكتب هذه المقالة الذي يسيطر عليها الاسلوب الساخر والذي غالبا ما يؤكد فيه الطاهر أن المتدبر في الأمور، لا يقع في مثل هذه الأخطاء، وأن المسألة تتعلق ببناء بغداد كان في العصر العباسي وعبد الملك من خلفاء بني أمية وهي مسألة لا يجهلها حتى طلبة المتوسطة(٨٢). المقالة كتبت بهذا النفس وانتهت بالحكمة التي يكررها الطاهر دائماً وفي أكثر من مقالة. وهي بيت المتنبي المشهور:

أعيذها نظراتٌ منك صادقةٌ أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ(٨٣)

والطاهر في مسألة الخاتمة كان يمتلك البراعة الفائقة التي تلتقي فيها مع براعة الابتداء ليحقق سعة المقال ويخرج به إلى مدارات متعددة، وغالبا ما تكون الخاتمة بآية قرآنية أو حكمة في بيت شعر، أو ملمح من التأريخ. وبهذا يكون الطاهر قد خطى بالمقالة الأدبية درجات كبيرة وجعل منها وسيلة للمعالجات لمختلف القضايا معتمدا في ذلك اسلوب المعالجات اللغوية التي تعتمد تطرية الكلام وإظهار المعارف واجتذاب القارئ.

خاتمة البحث

بعد هذه القراءة في مقالات الباب الواسع للدكتور علي جواد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١ـــــ يُعد (الدكتور علي جواد الطاهر) أحد أبرز الأدباء والنقاد العراقيين في القرن العشرين، الذين برزوا في فن المقالة، وقد تميز بميزات عدة، فضلا عن كونه جامعاً لفنون الأدب والفكر، والعلم والمعرفة عامة، مما جعله في طليعة العلماء والمشاهير في ذلك القرن.

٢ ـــــ عبَّر الطاهر عن رؤيته وأفكاره تجاه عدد من الموضوعات بـ (فن المقالة)، التي وجدها صالحة للمعالجة، وأكثر تأثيراً في المتلقي، فكانت (المقالة الأدبية) الشكل الأبرز في الكتاب. وقد جاءت على ثلاثة أنماط هي: مقالة الشخصية، ومقالة السيرة الذاتية، ومقالة القضية.

٣ ـــــ كثيرا ما كان الطاهر يتخذ من مقالاته هدفاً لتحقيق غايات تربوية وخُلقية، ليجعل تلك الأفكار علاجا لدى القارئ، وكان على القارئ أن يحسَ تلك القيم ويستشعر الضرر الذي ينتج في حالة انتشار تلك العيوب فيسرع في علاجها.

٤ـــ امتازت مقالات المرحوم الطاهر بأسلوب خاص به يحمل مميزات يمكن أن تحدد بما يلي:

أ ـــــ قوة الأسلوب الذي يؤدي إلى قوة التأثير في القارئ، وإحداث القناعة عنده، وهذه القوة تأتي من حيوية الأفكار، ودقتها، ومتانة الجمل، وروعتها، وكذلك تسهم في قوة الأسلوب، والكلمات الموحية، والعبارات

الغنية، والصورة الرائعة. والتضمين لبعض الموروث العربي واعتماد الاستقامة في العبارات من جهة توخي النحو العربي ومعانيه وطلاقة في التعبير وبعد عن العيوب

ب ـــــ الوضوح و الإفهام، والمتعة الأدبية الخالصة، كون الطاهر كان يملك الذوق الأدبي المرهف والأذن الموسيقية، والقدرات البيانية، و يستطيع أن يتحاشى الكلمات الخشنة والجمل المتنافرة، والجرس الرتيب، و يوائم بين الألفاظ والمعاني ويستوحي من خياله الصورة المعبرة .

ج ـــــ البداية التي تعتمد على الإثارة ولفت الانتباه ويكون بطريقة الحوار المفتعل الذي يكون عن طريق سؤال يوجه إلى القارئ، أو شخص آخر يوجه السؤال إلى الكاتب؛ وغالبا ما يكون القارئ أديباً مختصاً ، وهذه المقدمة تؤدي إلى عدة إغراض منها: أنها نافذة للدخول إلى صلب الموضوع، وتلفت انتباه القارئ بما للسؤال من استفظاع الأمر المسؤول عنه؛ وكذلك تحقق هذه المقدمة نوعاً من التناغم بين الكاتب والقارئ فيحبب له مواصلة القراءة.

٥ ـــ تميزت كتابات الطاهر بتسلسل الأفكار وترابطها.

٦ ـــــ بث الطاهر في مقالاته إحساسه الخاص وتجاربه الشخصية.

٧ـــ الطاهر في مقالاته حريص على أن يطبعها بطابع الصراحة والحرية في التعبير. وترك خصائص موضوعية في المقال.

وبهذا نكون قد سعينا إلى بيان قيمة كتاب (مقالات الباب الواسع) للدكتور علي جواد الطاهر أملين أن نكون قد وفقنا لتحقيق الفائدة .

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- أساتذتي ومقالات أخرى. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية ـــــــــ بغداد،١٩٨٦م.
- الباب الضيق. د علي جواد الطاهر، شركة المعرفة للنشر والتوزيع المحدودة ـــــــــ بغداد،١٩٩٠م.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القران الكريم دراسة دلالية مقارنة ، عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار، الأردن – الزرقاء ، ط١، ١٩٨٥ م .
- ج س. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية ـــــ بغداد، ١٩٧٧م.
- ديوان ابي الطيب المتنبي. أبو الحسن علي بن احمد الواحدي (ت٤٦٨ه) ، تحقيق: فريدريخ ديتريصي ، طبعة برلين ،١٨٦١م.
- ديوان ابي العتاهية. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٨٦م.
- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٩ م
- رواد المقالة الأدبية في الأدب العراقي الحديث ، عبد الجبار داؤد البصري ، دار الحرية ، بغداد ، (د . ط) ، ١٩٧٥ م .
- علي جواد الطاهر الناقد المقالي. أ.د سعيد عدنان المحنا، الطيف للطباعة ،٢٠٠٦م.
- عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية ، محمد احمد العزب ، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت ، (د . ط) ، ١٩٨٢ م .
- فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ربيعي عبد الخالق ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، (د . ط) ، ١٩٨٨م .
- فن المقالة ، محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، ط٤ ، ١٩٦٦م .
- الفنون الأدبية وإعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي ، دار الكاتب العربي، بيروت ، ١٩٦٣ م .
- لسان العرب ، ابن منظور ، إعداد وتصنيف يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت، د . ت .
- مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع ، فاضل ثامر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٧ م .
- مسائل في الإبداع والتصور ،جمال عبد الملك ،دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطـــوم ، ط١ ، ١٩٧٢ م .
- معجم مقاييس اللغة. احمد بن فارس(ت ٣٩٥ه)، تحقيق: محمد عوض مرعب، فاطمة محمد أصلان، دار أحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٨م
- مقالات الباب الواسع. د علي جواد الطاهر، إعداد وتقديم: محمود كريم الموسوي، دار الشؤون الثقافية_____

- مقالات في النقد الأدبي ... والتربية. علي جواد الطاهر، مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين ـــــــ بغداد،١٩٦٢م.
- المقالة في الأدب الجزائري الحديث (١٩٣١– ١٩٥٦)، قدام سعيدة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد:
- مقدمة في النقد الأدبي.علي جواد الطاهر،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ـــــ لبنان،١٩٧٩م.
- موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين. حميد المطبعي، بغداد
- النقد الأدبي ، احمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ط٤ ، ١٩٦٧ م .
- وراء الأفق الأدبي. علي جواد الطاهر، وزارة الإعلام ـــــــ بغداد،١٩٧٧م.

الهوامش

[1] أول مدرسة ابتدائية أنشئت في الحلة.

[2] سماعاً من الاستاذ الدكتور سعيد عدنان في محاضرة طلبة الدكتوراه للعام الدراسي٢٠١٠م.

[3] وهي مجلة كانت تصدر في مدينة الناصرية.

[4] ديوان ابي العتاهية:٢٣٠

[5] مقالات في النقد الأدبي ... والتربية. علي جواد الطاهر، مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين ـــــــ بغداد،١٩٦٢م.

[6] وراء الأفق الأدبي. علي جواد الطاهر، وزارة الإعلام ـــــــ بغداد،١٩٧٧م.

[7] أساتذتي ومقالات أخرى. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية ـــــــــ بغداد،١٩٨٦م.

[8] الباب الضيق. د علي جواد الطاهر، شركة المعرفة للنشر والتوزيع المحدودة ـــــــــ بغداد،١٩٩٠م.

[9] مقالات الباب الواسع. د علي جواد الطاهر، إعداد وتقديم: محمود كريم الموسوي، دار الشؤون الثقافيةـــــ بغداد، الطبعة الأولى،٢٠٠٧م.

[10] المصدر السابق:٢٨٥.

[11] ينظر معجم مقاييس اللغة. احمد بن فارس(ت ٣٩٥ه)، تحقيق: محمد عوض مرعب، فاطمة محمد أصلان، دار أحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٨م:٨٣٩ .

[12] ينظر لسان العرب. ابن منظور الأفريقي، دار صادر ـــــ بيروت:٥٧٢ ـــــــــ ٥٧٣ .

[13] ديوانه. تحقيق: فوزي عطوي:٢٩

[14] ينظر : فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث. ربعي عبد الخالق:١٤.

[15] ينظر : مقدمة في النقد الأدبي. علي جواد الطاهر:٢٨٨.

[16] ينظر :التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن. عودة خليل أبو عودة:٩٩.

[17] النقد الأدبي: أحمد أمين:١١٦.

[18] ينظر: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة : ٢٣٠ ؛ رواد المقالة الأدبية في الأدب العراقي الحديث ، عبد الجبار البصري : ١١ ؛ مقدمة في النقد الأدبي ، علي جواد الطاهر : ٢٨٤ ..

[19] فن المقالة. محمد يوسف نجم:٩٣ ـــــ٩٤.

[20] المصدر السابق:١٧.

[21] ينظر: عن اللغة والأدب والنقد ـــــ رؤية تاريخية فنية. محمد احمد الغرب: ١٧١.

[22] النقد الأدبي:١١٦.

[23] ينظر: مقدمة في النقد الأدبي. علي جواد الطاهر:٢٩٠ ـــــ٢٩١.

[24] ينظر: مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع. فاضل ثامر:٩١.

[25] ينظر: مقدمة في النقد الأدبي:٢٦٢ ـــــ٣٠٦.

[26] ينظر: رواد المقالة الأدبية في الأدب العراقي الحديث. عبد الجبار داود البصري، بغداد.: ٤١.

[27] موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين. حميد المطبعي، بغداد:٩٩.

[28] ج س. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية ـــــ بغداد. ١٩٧٧م :١٠٠.

[29] ينظر:المصدر السابق: ٩٩.

[30] ينظر:المصدر السابق: ٩٤.

[31] ينظر:المصدر السابق: ١٠٠.

[٣٢]ينظر: المصدر السابق: ٨٠.

[٣٣] المصدر السابق: ٢٠٦.

[٣٤] ينظر: المصدر السابق: ٢٠٧.

[٣٥] المصدر السابق: ٢٠٧ ـــــــ ٢٠٨.

[٣٦] فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث. ربيعي عبد الخالق : ٦٩ .

[٣٧] فن المقالة : ٩٧ .

[٣٨] مسائل في الإبداع والتصور. جمال عبد الملك : ٩ .

[٣٩] ينظر: فن المقالة. محمد يوسف نجم: ٦٥ ـــــ٦٨ .

[٤٠] المصدر السابق:٩٣.

[٤١] مقالات الباب الواسع:١٧.

[٤٢] المصدر السابق:٨٢.

[٤٣] المصدر السابق:١٣٣.

[٤٤] المصدر السابق:١٦٢.

[٤٥] المصدر السابق: ٢٠.

[٤٦] المصدر السابق: ١٦٢ـــــــــ١٦٣.

[٤٧] المصدر السابق: ١٧٠.

[٤٨] المصدر السابق:١٣٤ .

[٤٩] المصدر السابق: ١٣٦ ـــــ١٣٧.

[٥٠] ينظر: المصدر السابق:١٤٠ .

[٥١] ينظر: المصدر السابق:١٤٠ـــــــ ١٤١ .

[٥٢] ينظر: فن المقالة. محمد يوسف نجم: ٦٢.

[٥٣] مقالات الباب الواسع:١٧.

[٥٤] المصدر السابق:١١.

[٥٥] المصدر السابق:١١ـــــ١٢.

[٥٦] ينظر:المصدر السابق:١٢.

[٥٧] المصدر السابق:٢٤١ـــــ٢٤٢.

[٥٨] المصدر السابق:٢٤٢.

[٥٩] ذكر هذا النمط أستاذنا الدكتور سعيد عدنان المحنا في كتابه (علي جواد الطاهر: الناقد المقالي صفحة(١٠٤).

[٦٠] ينظر:المقالة في الأدب الجزائري الحديث (١٩٣١– ١٩٥٦)، قدام سعيدة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد: ٣٥–٣٦.

[٦١] علي جواد الطاهر: الناقد المقالي:١٠٤.

[٦٢] ينظر: فن المقالة. محمد يوسف نجم: ٨٦

[٦٣] مقالات الباب الواسع:٤٧.

[٦٤] المصدر السابق: ٥٠.

[٦٥] المصدر السابق: ٢٢١.

[٦٦] المصدر السابق:٤٠.

[٦٧] المصدر السابق:٨١.

[٦٨] ينظر: فن المقالة. محمد يوسف نجم: ٨٦

[٦٩] مقالات الباب الواسع:٤٧.

[٧٠] المصدر السابق :٤٧.

[٧١] ينظر: المصدر السابق :٤٧.

[٧٢] ينظر: المصدر السابق :٤٨.

[٧٣] المصدر السابق :٨٥.

[٧٤] المصدر السابق :٢٠١.

[٧٥] المصدر السابق :٢٣٧.

[٧٦] علي جواد الطاهر: الناقد المقالي:١٠٤.

[٧٧] مقالات الباب الواسع:١٢٨.

[٧٨] المصدر السابق :٢٥.

[٧٩] المصدر السابق :٣٢.

[٨٠] المصدر السابق :٤٣.

[٨١] المصدر السابق :١٣٠.

[٨٢] ينظر: المصدر السابق :١٣٠.

[٨٣] ديوان ابي الطيب المتنبي. أبو الحسن علي بن احمد الواحدي ٤٨٣.